قيمة إيحاء الكلمة في الشعر العربي

بقـــلم
الدكتور / عـــلى محمدين مـــوسى

لعل من المناسب قبل أن نشرع فى موضوع البحث أن نشير الى أن الشعر الذى نقصد أن نتناول قيمة إيحاد الكلمة فيه بالدراسة إنما هو الفن الغنائى ، اذ أنه يخاطب الوجدان والعاطفة ، ويستلهم الوحى والخيال ، ويتجلى فى طبيعته الايماء والرمز بدرجة لا تستطيعها أجناس الأدب الأخرى .

ولهذا كان الشعر الغنائى عروس الأدب الخالد ، ولحن الحياة الباقى ، ونبضات القلب ، وحديث الخواطر ، ومرآة النفوس ، وهتاف المشاعر ، حيث يعبر الشعر فيه عن خلجاته الغامضة وأحاسيسه الدفينة ، وانفعالاته النفسية ، وتجاربه الذاتية نحو الانسان والوجود والطبيعة ، وكل مافى الكون من خير وشر ، وحلو ومر ، وحب وبغض ، ووفاء وغدر ، وآمال وآلام فى أسلوب رقيق رشيق ، تتكىء فيه الحقيقة على الخيال الرفيع ، والتصوير المثير على امتداد العصور ، واختلاف الأجناس ، وتباين الفطر .

ومن أجل ذلك فقد استبعدنا عن مجال هذه الدراسة الشعر القصصى ، وهو الملحمى والمسرحى ، إذ أنه يقوم على الموضوعية ، ويعتمد على الحكاية وترتيب الحوادث وتشابكها ، وتختفى فيه عاطفة الشاعر وراء حياة الجماعة التى قصد أن يوجه فنه إليها ، فيقل فيه الايحاء ويندر .

فضلا عن أن دراسة الايحاء فى هذا الفن جهد ضائع ،

وعنـــاء لا غنـــاء فيـــه ، إذ أن مصـــيره الى الزوال عن عـــالم الشعر ، حيث أخـــذت الملحمـــة تختفى ، وبدأت المسرحية تتجـــه نحو النثـــر ، ويمكن أن يعـــود الســـر فى ذلك إلى مايلى :

أمـــا الملحمة الشعرية التى ظهرت فى الوطن العربى تأثراً بالاتصال بالآداب الأجنبية ، وعـــدت ثمـــرة من ثـــمار النهضة الحديثة ، فقـــد أخـــذ صوتها يخفت فى عصرنا الحـــاضر ، إذ أن طبيعتها لا تتفـــق والعقلية العربية المتحضرة ، خاصـــة العربية الاسلامية التى لا تقدس البطولات إلى درجـــة الألوهية ، ولا تعتقد فى تلك الخرافات والأساطير التى كانت تعيش فى وفـــاق تـــام مع فـــكر تلك المجتمعات الوثنيـــة ودراستها الآن دراســـة لطـــور تاريخى من أطـــوار الشـــعر(١) .

وأمـــا المسرحية الشعرية التى ابتكرت فى عصـــر النهضة الحديثة تأثـــراً بالاتصال بالآداب الأوربية فقـــد بـــدأ الذوق الأدبى المعاصر ينصرف عنهـــا انصرافا بينـــاً ، فاتجهت نحـــو النثـــر ، إذ أنـــه أكثر تحـــرراً وانطلاقاً وســـعة ، وأخف مئـــونة ، وأيسر حـــالا ، وأسرع استجابة ، وأقـــدر على التوغـــل فى المشكلات والظواهـــر الاجتماعية العـــديدة ، وأدق فى تحليـــل المشـــاعر المعقدة ، وأقـــرب إلى مستوى آفـــاق الجماهير ذوى الثقافات المحـــدودة(٢) .

---

(١) راجع الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ص١٥٩ ، الطبعة الثالثة ، طبع مكتبة الأنجلو المصرية عـــام ١٩٦٢ م ـ واتجاهات وآراء فى النقـــد الحديث للدكتور محمد نايل ص٣٠ ، طبع مطبعة العاصمة بشارع الفلكى بالقاهرة عـــام ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م . وفـــن الشعر للدكتور محمد مندور ص١٠ ، ١١ (سلسلة المكتبة الثقافية رقـــم ١٢) .

— ٢ —

ومن البدهى أن النثر الآن قد استأثر بجل ضروب الأدب ؛ حيث اتسعت موضوعاته ، فشملت إلى جانب أغراضه القديمة كالخطب والرسائل والمقامات أنواعاً جديدة هى القصة والمسرحية والمقال ، ولم يترك للشعر مجالا رحبا إلا فى الفن الغنائى تحدو به الانسانية وتشدو فى نغم ساحر ، وخيال بديع ، وتصوير دقيق ، وتحليل نفسى بارع .

ومن ثم فقد أصبحت للفن الغنائى الزعامة على سائر ضروب الأدب الأخرى ، إذ تربع على عرش الشعر ، وتحقق له المجد والبقاء والذيوع .

وما خلع عليه تلك المنزلة ، ولا وهب له ذلك الخلود إلا إيحاء الكلمة المهيمن على دلالتها اللغوية لما فيه من اثارة تضفى على الصياغة الفنية فى الشعر أبعاداً شتى من الظلال والألوان .

ومن هنا يعد إيحاء الكلمة أهم عنصر من عناصر الصياغة الفنية فى الشعر ، وأقوم معيار من معايير الحكم الموضوعية فى النقد الأدبى على النتاج الفنى للشعراء .

— ٣ —

وإيحاء الكلمة مصطلح حديث قد كثر جريانه على الألسنة فى عصرنا الحاضر فى دراسة الأدب ونقده ، وإن كان قديماً

---

(٢) راجع اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص٣١ ، ١٥٨ — وفن الشعر ص٢٠ ، ٢١ .

فى قواميس اللغـــة ، فهـــو فيهـــا يدل على الاشارة والكتابة والمكتوب والرســـالة والالهـــام والكلام الخفى(٣) •

ثم استعارها النقـــد الحديث من مدلولها اللغـــوى العـــام إلى إثارتها فى النفس معـــانى كثيرة أحاطت بهـــا مع مـــرور الزمن ربما لم تتناولها قواميس اللغـــة •

وأظهـــر ما يكون ذلك العمـــوم فى الدلالة اللغوية فى تلك الكلمات التى تتصـــل بمنطقة الشعور والوجدان كألفـــاظ الأم والوطن والحرية والحب والسعادة والعفـــة والمروءة والعرض والمحسوبية وما إليهـــا •

وهذا العموم فى مضمون الكلمات اللغوية مجـــال فسيح فى صياغة الشـــعر ، فيستطيع الشـــاعر ذو الملكة الخالقة المبدعة أن يستغله أبرع استغلال فى الايحـــاء والرمـــز والاشـــارة •

ومن ثم فـــان للكلمة فى الشـــعر وحيـــاً مثـــيراً ، تحمل فيـــه طاقات شعورية متعددة الجوانب متنوعة النواحى ، ولهـــا فيـــه بريق ســـاحر ، يجعل لهـــا صورة غـــير صورتها فى النثـــر •

ولعـــل ذلك راجـــع إلى أن طبيعة النغـــم والموسيقى فى الشعر تجعـــل لـــه سلطاناً على الوجدان والمشـــاعر ، وتضفى على الكلمـــة

---

(٣) راجع لســـان العـــرب لابن منظور ج ٦ ص٤٧٨٧ ـ ٤٧٨٩ مادة وحى « طبع دار المعارف بالقاهرة بتحقيق الأستاذ عبد الله على الكبـــير ، ومحمد أحمـــد حسب الله ، وهاشم محمـــد الشاذلى » . والقاموس المحيط للفـــيروز آبادى ج ٤ ص٤٠١ مـــادة وحى « الطبعة الثانية طبـــع مطبعـــة البابى الحلبى بمصر عـــام ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م » ومختار الصحاح لأبى بكر الـــرازى ص٧١٣ مـــادة وحى « طبع المطبعـــة الأميرية بالقاهـــرة بترتيب الأستاذ محمود خاطـــر عـــام ١٩٥٣ م » .

هـالة من السـحر تمنحها ألواناً من الدلالات الشعورية التى ربمـا لا تخطـر على فـكر واضـع اللغـة ، فتتسع معانيها ، وتتشعب اتجاهاتها ، وتترامى أبعادها فيـه ، إذ أنـه لغـة العاطفة ، والنثـر فى جملته لغـة العقـل .

وهـذا الايقاع الموسيقى فى الشـعر بمـا يسبغه على الأفئدة من أحاسيس وخواطـر ، وبمـا يضفيه على الكلمة من رونق وبريق ممـا يجعلها تبـرز فى صورته راقصـة نشـوى هـو الذى يمنحـه قـوة التأثير على العاطفة والشعور على نحـو غـير مألوف فى معظم النثـر .

ومن أجـل ذلك كـان العموم والابهـام والغموض والنغـم الموقع من خواص الشـعر ، وصـار مجال التفسير والتحليل فيـه رحبـا واسعاً إلى أبعـد مـدى ، حيث تتجلى فيـه حرية النقـد التى تنبـع من إيحـاء الكلمة من حيث هى فى الأصل رمـز لمعناها ومحواها ، وسـلامة على مدلولها وموسيقاها .

— ٤ —

ولقـد بسـط ذلك ، وتناوله تناولا بارعـاً العالم الكبير والنـاقد البصـير والأديب الفـذ عبد القاهـر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجـاز » .

فأمـا كتـابه « أسرار البـلاغة » فقـد عقـد فيـه فصـلا تنـاول فيـه الغموض فى الشعر ، وقسمه إلى ما سببه الخطـأ فى

الأسلوب ونظم الكلام فأنكره ورفضه ، وإلى ما سببه دقة الفكرة وعمقها فقبله وأشاد به(٤) .

وقد علق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى على هذا الفصل فى سياق حديثه عن المذهب الرمزى فى النقد الحديث قائلا : « ونحن مع عبد القاهر فى كل ما قال ، ونحيلك على هذا الفصل الجميل من كتابه لتقرأه بامعان وروية ، فهو يكشف لنا عن عبقريته ، ومن أجله نعد عبد القاهر أول واضع لمذهب الرمزية فى النقد الأدبى عند العرب »(٥) .

وأما كتابه « دلائل الاعجاز » فقد وجه عنايته فيه إلى نظريته فى « النظم » التى أقام أسسها على الاسهاب فى تفسير دلالات الألفاظ ، وشرح تغاير مدلولاتها باختلاف مواقعها فى الجمل ، مرجعاً أهميتها إلى أنها رموز يؤدى بها المعنى ، ولا شأن لها فى ذاتها منفردة(٦) .

وقد أشاد الدكتور محمد مندور بمنهج عبد القاهر الجرجانى اللغوى الفنى فى دراسة الأدب فى نظريته « النظم » التى قررها فى آخر كتابه « دلائل الاعجاز » فى سياق دعوته إلى وجوب استقلال الأدب بمنهج فقه اللغة فى تذوقه وفهمه قائلا « وهنا يلحق الجرجانى بأكبر مدرسة حديثة فى تحليل اللغة »(٧) .

---

(٤) راجع اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ص١١٨ ـ ١٣٥ « طبع دار المعرفة ببيروت بلبنان عام ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م » .

(٥) دراسات فى النقد الادبى ، الحلقة الأولى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٥٦ « الطبعة الأولى طبع دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة »

(٦) راجع دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص٣٥ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٤ ، ١١٩ ـ ٢٢٥ ، ٣٣٩ ـ ٣٥٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ « الطبعة الثالثة طبع دار المنار بمصر عام ١٣٦٦ هـ » .

(٧) فى الميزان الجديد للدكتور محمد مندور ص١٨٦ « الطبعة الثالثة طبع مكتبة نهضة مصر بالفجالة بمصر » .

ونـــوه الدكتور محمـــد نايل بمـــا أزجـــاه عبد القاهر الجرجانى فى كتـــابه « دلائل الاعجـــاز » للنقـــد فى ختـــام حديثه عن نظـــرية العلاقات أو النظـــم قـــائلا : « وقبـــل أن أنهى هـــذه الجـــولة مع عبد القاهـــر وما كتب ، أرى أن أنقـــل لـــه هنـــا فصـــلا قصـــيراً ختـــم بـــه « دلائل الاعجـــاز » وأبان فيـــه الســـر فى وضع مفردات اللغـــة وأنهـــا رمـــوز للمعانى التى وضعت لهـــا ، وبذلك سبق النقـــد الغـــربى الحديث بقـــرون عديدة فى نظرية الرمزية فى اللغـــة ، كمـــا سبقها فى نظـــرية العلاقات أو النظـــم »(٨) .

* * *

— ٥ —

هـــذا ، والايحـــاء الذى هـــو ســـر إيثـــار كلمة عن غيرهـــا فى الشـــعر ، ليتنوع أداؤهـــا للمعنى إلى صـــور كثيرة تخلعها الصياغة الفنيـــة على المشـــاعر والأفكار صعب المـــراس لا يصدر إلا عن شاعر أوتى حظـــاً من عـــالم الفـــن والفـــكر ، ونصيبا من كمـــال المعرفة وشمول الثقـــافة ، حتى يستطيع أن يتخـــذ من مهارته فى خصائص الصياغة ، وأصالته فى براعـــة الأداء ، وتصرفه فى روائع الخيـــال وســـائل يهيىء بهـــا عواطف الآخرين ومشاعرهم لاستقبال الأحاسيس التى يجدهـــا فى وجدانه ، ويزخـــر بهـــا خاطره ، ليتحقق الاتصـــال بين الطرفين اتصـــالا يبقى أثـــره بقـــاء النص الذى لا يستمد خلوده إلا من فنـــاء عاطفة فى عاطفة ، والتقـــاء شعور بشعور .

---

(٨) نظرية العلاقات أو النظـــم بين عبد القاهـــر والنقـــد الحديث للدكتور محمـــد نايل ص٩٧ « طبـــع دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة عـــام ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٤ م » .

ولتوضيح قيمة الايحاء فى صياغة الشعر ننظر إلى أروع ما يروى لأبى صخر الهذلى فى النسيب ، لنرى أثر انتقاء الكلمة المعبرة عن استدعاء المعنى بصور منوعة مثيرة بعيدة المرمى كاملة الظلال والألوان .

ولندع أبا صخر الهذلى يصور لنا ما يجد من حرقة الشوق ، ولوعة الوجد ، ومكابدة الحرمان ، حيث يقول :

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى
أليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة
ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكت الدهر
وما هو إلا أن أراها فجاءة
فأبهت لا عرف لدى ولا نكر(٩)

ونرى الشاعر فى هذه الأبيات يصور لنا خلجات القلب الخافق ، وآمال النفس الحزينة ، ومخاوف الروح المعذبة ، ويبين لنا الصراع الذى قام بينه وبين الدهر .

وبرغم هذه المعاناة وذلك الصراع ينادى الشاعر حب محبوبته ، ويطلب منه أن يزيده جوى كل ليلة ، ويعلن للسلوى والأيام أن موعد النسيان الحشر ، فالحب أبدى ، والعاطفة بلا

---

(٩) شعر الهذليين للدكتور أحمد كمال زكى ص١٦٣ ـ ط. دار الكاتب العربى عام ١٩٦٩ م .

حـدود ، وعـذاب قلبـه أصبح حيـاة طبعية عنده ، حيث يحبهـا ويهواها ، ولا يشغله شـاغل سواها .

وحين يلقى الشـاعر محبوبته يبهت ، وتسيطر عليـه حـالة شعورية غريبة ، فهـو لا يعرفها حـق المعرفة ، ولا ينكرها حق النكر ، إذ جهـل أمـر نفسـه ، وكيف لا ؟!! وفـؤاده معلق بهـا ، وخواطره مشغولة بحبهـا .

والايحـاء فى تلك الأبيـات يشـع من نسـق التعبـير ، ومن الألفـاظ فيهـا ، فالشاعر يقسـم بقوله : « والذى أبكى وأضحك » وقـد يبـدو أن هـذا القسـم أمـر لغوى عـادى لا شىء فيـه سـوى التوكيد ، وأن قـوله « أبكى وأضحك » طباق يقـوى المعنى ، ويبـرزه فى صـورة جليـة واضحة .

ولكن الموقف يقضى بأن فى هـذا القسـم إيحـاء بحـال الشاعر المعـذبة المنطـوية على الحسرة والألـم ، وأن فى « أبكى وأضحك » أشـعاراً بأنـه يبكى على فـراق محبوبته ، لمـا ينتابه من اليـأس القـاتل ، والهـم العاصف ، والأسف المضنى ، والكرب الفـادح ، والعنـاء المبـرح ، ويضحك حين يلقاهـا ، أو تعـده مـرة بلقـاء ، لمـا ينـاله من سعادة القـرب ، وصفاء الوصـل ، وسرور النفس ، ونضـرة الحيـاة ، ورغـد العيش .

إن الشـاعر هنـا لم يضـع الكلمات لتبنى بهـا الجمـل ، أو تنظـم على سلكها الأبيـات ، وإنمـا وضعها من فيض قلبـه ، مختاراً لهـا بمـا أمـلاه عليـه وجدانه .

وكـذلك أيضـاً قـوله : « أمـات وأحيـا » فـانه إطـلالة روح معـذبة فى تجربة الحب ، وعـزف قـلب محترق على أوتـار المشاعر والوجدان ، وومضة من ضـوء تتوهج خلف أسـتار الايحاء ،

ثم لننظر إلى كلمتى « عرف ونكر » لنرى أن الشاعر قد أبان بهما عن حالته فى قوله « فأبهت » فهما يوحيان بأثر الدهشة والتحير على وجدانه وفكره .

وهكذا تفصح تلك الأبيات بكلماتها الموحية فى سياق الصياغة الفنية عن مكنون نفس الشاعر ، ومشاعره الهائمة فى نغم حزين ، وتصوير مؤثر للوعة الفراق .

* * *

— ٦ —

ثم يبدو إيحاء الكلمة واضحاً فيما عبر به ابن حيوس مادحاً ناصر الدولة بن حمدان ، حيث يقول :

طاول بقدرك من علا مقداره
فأرى العلا فلكاً عليك مداره

من يدفع الشرف الذى أوتيته
من بعد ما أعيا الورى إنكاره ؟

نطق الولى به وأسكت حاسد
عن وصفه وسكوته إقراره

لك فى الفضائل والمناقب رتبة
تركت حسودك لا يقر قراره

ليدم لك العز المؤثل وليدم
لمريد كيدك ذله وصغاره(١٠)

---

(١٠) ديوانه جـ ١ ص٢٩٨ « طبع دمشق بتحقيق خليل مردم عام ١٩٥١ م » .

فى هـذه الأبيات يمـدح ابن حيوس ناصر الدولـة ، ويبـدو فى مدحـه أنـه يقـرر حقائق تصـل القارىء بعـالم المـدح الذى يغلب عليـه الاسراف فى المبالغة والتهويل ، فهـو يقول لـه : لتستمر فى عـلاك فـانى أرى العـلا مقصوراً عليك فلكه ، وما نلته من شرف ، وما أوتيتـه من المعـالى أعيـا الورى إنكـاره ، فـلا يستطيعون دفعـه ونفيـه ، فهـذا الولى ينطق بـه ويعترف بـه ، وذلك الحاسد أبكـم لا يستطيع الكلام ، وفى سكوته إقـراره بأنك عالى الهمـة ، رفيـع المرتبة ، فليدم لك العـز والمجـد ، وليدم لعـدوك الـذل والصـغار .

وقـد أدى الايحـاء فى الأبيات دوره فى إبـراز عاطفة الشاعر ووجـدانه نحـو ممدوحه . ولنقف عند تلك الكلمات الموحيـة ذات الاشارات الدقيقة ، واللمحات الفنيـة التى تجعلنا نحـكم بأن الشاعر مطبوع على سجية الشعراء النابغين ، ومنهـج أهـل الفن البارعين .

ففى كلمـة « طـاول » إيحـاء بالقـوة فى امضاء الأمـور : وبمـدى بذل الجهـد فى نيـل العـلا ، فهـو لم يقـل لـه :

« اقعـد فـانك أنت الطـاعم الكـاسى »

ولكنـه يصـور ممدوحه بأنه لم ينـل العـلا إلا بجهده وفكره ، وسـمو نفسـه ، وعـلو همتـه .

كمـا أنهـا توحى أيضـاً بأن المنافسة قائمـة بينـه وبين الملوك الآخرين ، حيث صورهم بأن مقدارهم عـال .

ثم فى كلمـة « من » الموصولة فى قـوله : « من عـلا مقداره » إيحـاء بالعموم والشمول بحـكم دلالتها اللغوية على المفرد والجمع . وهى هنـا تشملهما جميعـاً حسب المعنى والسياق والموقف ، وإن كان الشـاعر قـد راعى لفظها فى اعـادة الضمير إليهـا مفـرداً .

وفى كلمة « أرى » إيحاء باليقين الذى لا يقبل الريب ؛ ولا يسمح لأى نوع من شك يخالط المعنى الذى أراده الشاعر .

وفى كلمة « فلكاً » إيحاء بالسعة والامتداد والارتقاء ، وبأن ما بلغه الممدوح من المعالى ليس أمراً هيناً ، بل هو صعب المنال .

وفى الاستفهام فى قوله : « من يدفع الشرف الذى أوتيته ؟ » إيحاء باستحالة انتزاع الشرف والرفعة والسلطان والمجد من الممدوح بحكم دلالته البلاغية على النفى والاستبعاد هنا .

و فى كلمة « يدفع » إيحاء بالمنعة والتمكن ، وبأن من يحاول النيل من ممدوحه فانه فى حاجة إلى قوة خارقة .

كما أنها توحى أيضاً بأن ممدوحه محصن بقوى البقاء ، وبأنه مأمون الجانب من كل خطر .

وفى لفظ « أوتيته » إيحاء بأن شرف ممدوحه منحة عليا من الله العلى القدير ، وفيض من اتخاذه الأسباب القوية .

وفى كلمة « أعيا » إيحاء بالمعاناة التى أصابت الورى جميعاً بسبب شرف الممدوح ، فلا يستطيعون إنكاره .

وفى كلمة « نطق » إيحاء بالجهر والفصاحة ، وبأن الصيحة قوية على شفاه الذين يحبون الممدوح ، ويتمتعون بفضله وخيره وكرمه وإحسانه .

وفى بناء الفعل « أسكت » للمجهول إيحاء بأن الحاسد لم يسكت من تلقاء نفسه ؛ وإنما أسكته قهر الممدوح البين الذى انتصر على كل شىء حتى على الحسد .

وفى كلمة « رتبة » إيحاء بالرفعة والسمو والرقة والشفافية ، يجانسها التعبير بقوله : « تركت حسودك » الذى يوحى بأن رتبة

ممدوحه فى الفضائل والمناقب قد تركت الحسود دون عناء منه ، وأهملته من غير مبالاة به .

وفى خاتمة الأبيات يكرر الشاعر لفظ « ليدم » وفى تكراره إيحاء بثبوت العز واستمراره للمدوح ، وبقاء الذل لحاسده .

* * *

— ٧ —

ويطالعنا إيحاء الكلمة واضحا جليا فى شعر المتنبى ، حيث كان أبرع شعراء العربية فى مجال اختيار الألفاظ واستغلال خصائصها فى الايحاء والرمز .

وهاك صورة حية من فنون الايحاء والرمز من قصيدته التى هجا بها كافورا عند خروجه من مصر ، وعبر فيها عما ألم به من إنكار الدهر له ، حيث يقول فى مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد ؟
بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدا دونها بيد
لولا العلى لم تجب بى ما أجوب بها
وجناء حرف ولا جرداء قيدود(١١)
وكان أطيب من سيفى معانقة
أشباه رونقه الغيد الأماليد(١٢)

---

(١١) الوجناء : الناقة الشديدة . الحرف : الضامرة . الجرداء : الفرس القصيرة . القيدود : الطويلة العنق .

(١٢) الغيد : جمع غيداء وهى المتثنية لينا . الأماليد : جمع أملود وأملودة وهى الناعمة المستوية القوام .

لم يترك الدهـر من قلبى ولا كبـدى
شـيئاً تتيمـه عيـن ولا جيـد
يـا سـاقيى أخمـر فى كؤوسـكما
أم فى كؤوسـكما هـم وتسـهيد ؟
أصـخره أنـا ؟ مـالى لا تحـركنى !
هذى المدام ولا هـذى الأغـاريد(١٣)
إذا أردت كميـت اللـون صـافية
وجدتهـا وحبيـب النفـس مفقـود
مـاذا لقيـت من الدنيـا ؟ وأعجبـه
أنى بمـا أنـا شاك منـه محسود(١٤)

فى هـذه الأبيات التى تعـد مقدمة نواحـة ، يقف الشـاعر فيهـا وقفـة حزينة أمـام العيد ، ثم تنتهى بتقـديم ما يسـوغ ضربه فى الأرض ، وتعلقـه بالآمـال ، وهـو أنـه لـولا العـلا ما جابت بـه ناقـة ، وما أسرع بـه حصـان ، ولـولا العـلا أيضاً ما عـدل عن الحب إلى السـيف .

ونحن نلمس فيهـا أن المتنبى فى هـذا الاختيار لم يصـل إلى شىء ، حيث اختـار مجالدة النـاس والشـعر ، ولكنه بمـرور الزمن بـدأ الاحساس يؤكـد لـه أنـه لم يخسر الحـب ، بـل قد خسر الأمـل فى أن يحب ، إذ صـار فى مرحلة ينصرف فيهـا عنه الحسان .

وفى ضـوء هـذا الاحساس يصرخ فى ساقيه ، هـل يسقيانه

---

(١٣) الأغاريد : صـوت الطـائر .
(١٤) ديوانه ص٥٠٦ « طبـع بيروت عـام ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م » .

الخمر أم يسقيانه الهم والتسهيد ؟ .. إذ تحول بالحياة التى اختارها طواعية إلى صخرة .

حقاً لقد وصل هذا الشاعر إلى الاحباط ، فما يريده لا يأتى ، وما يأتى يجىء ناقصاً ، فاذا طلب الخمرة والحبيب جاء أضعف الأمرين ، وهو الخمرة ، وما يشقيه هو ما يراه من حسد الناس له مع ماهو فيه من محنة وبلية .

لقد بين لنا المتنبى فى هذه الأبيات حقيقة مهمة هنا ، وهى أن هناك المتنبى الذى عرفه الناس ، والمتنبى الذى عرفه المتنبى ، وشتان مابين الرجلين .

هذا ، ويتصف شعر المتنبى فى تلك الأبيات بالغنائية الرقراقة . فها هو ذا يلقى تبعاته على الزمان ، ويئن أنيناً موجعا كالأسد الجريح ، بعد أن كان سهما صلباً ، وقناة لا تلين .

وقد أدى الايحاء فيها دوره أداء كاملا فى إبراز مضاضة آلامه ، وعنف حرمانه ، وضياع آماله بصور مختلفة .

ولنتأمل الاستفهام الظاهر فى صدر البيت الأول ، والمقدر فى عجزه ، وهو مطلع القصيدة ، حيث يقول :

عيد بأية حال عدت يا عيد ؟
بما مضى أم بأمر فيك تجديد ؟

لنرى ما يثيره من سخرية المتنبى من العيد وتهكمه به فهو يسخر من أية حال عاد بها ويتهكم بها سواء أكانت خيراً أم شراً ؟ وسوء أكانت بما مضى من كوارث الدهر ونوائبه أم بما يضمره له مما لا يخطر على البال ؟ بحكم دلالته البلاغية على ذلك فى هذا البيت .

ثم لنتأمل ما وراء هذه السخرية وذلك التهكم من رمز وإيحاء فى تصوير نفسية الشاعر ، لنلمس ما يحس به من حالة شعورية يائسة ، ورؤية للعيد غريبة ، حيث يستقبله الناس ، حتى المحزون منهم بشىء من التفاؤل والفرح والاستبشار .

ولكن نظرتنا فى مجال الايحاء أوسع أفقاً من النظرة السطحية ، حيث يبدو من سياق القصيدة والموقف الذى قيلت فيه أن المتنبى قد رمز بالعيد إلى كافور سخرية وتهكماً ، بعد انقطاع أسباب الآمال عنده ، إذ رأى الناس يسبغون عليه قدراً كبيراً من التعظيم لا يستحقه فى نظره ، ويظهرون له البشاشة والتهلل والسرور عند لقائهم به ، كأنه عيد أهل عليهم ، غشا ونفاقاً ، التماسا لعطفه ورضاه ، أو خوفا من سلطانه وبطشه .

ويؤيد ذلك احتفاء المتنبى بالكلمة الموجهة المعبرة بالرمز والايحاء ، واقتداره على انتقاء اللفظ المثير البعيد المرمى .

فضلا عن استيائه من الزمن الذى ألقى به فى وجه كافور وحاشيته ، كما نراه فى سياق القصيدة فى تضاعيف هجائه له ولمن حوله بعد هذه الأبيات(١٥) .

ولنتأمل قوله : « أما الأحبة فالبيداء دونهم » لنرى أن كلمة « الأحبة » ترمز الى آماله التى كان يتطلع إليها .

وأن لفظ « البيداء » مع « دون » يوحيان بأن الطريق إلى تحقيق أحلامه طويل مهلك ، وأن أمله الكبير متقطع الأنفاس ، وأن عمره قد ولى ، وأنه لم يعد فيه نوع من القوة يواجه به الأخطار فى سبيل الوصول إلى طموحاته وتطلعاته .

---

(١٥) راجع ديوانه ص٥٠٧ ، ٥٠٨ .

ولذلك نـراه يلفظ هـذا العيـد الذى اتخـذه رمـزاً لكافور ، كمـا أشرنا ، حيث يقـول : « فليتـك بيـدا دونهـا بيـد » .

ولننظـر الى كلمـة « ليت » لنـرى فيهـا إيحـاء باليـأس القـاتل من تغـير حـاله بحـكم أنهـا أداة الاستحالة فى الاستعمال اللغـوى .

وهـذا اليـأس هـو الذى دفعـه الى مغـادرة مصـر ، حيث رأى كافـوراً عقبـة كـأداء فى سبيل الوصول إلى طموحه بعـد أن أغـراه بترك سـيف الدولـة ، ولم يمنحـه ولايـة من أرض مصر الواسعة ، ليحقق بهـا أمـلا عـاش يتطلع إليـه طـول حياته ، وهـو الوصول إلى الرياسة والحـكم .

ثم لننظـر إلى تعـويل المتنبى على تكـرار كلمتى « البيـد » و « دون » لنـرى فيهمـا إيحـاء باستحالة بلوغـه الى الآمـال ، وتعـذر مواجهته للأهوال ، واستبعاد تخلصـه من الأزمـات .

ولننظـر إلى قـوله : « وكـان أطيب من سيفى معانقة » لنرى أن التعبير بالفعـل « كـان » فيـه إيحـاء بالتحسر واعتصار الألـم فى نفس الشـاعر ، فهـل ما كـان يعـود ؟.. وهـل ما أصـبح ماضياً يتجـدد ؟..

وأن التعبير بكلمـة « معانقة » فيـه إيحـاء بما كان يشتهيه ، وبمـا يتطلع إليـه ، ولكن أين منـه تلك المعانقة مع استحالة عودة المـاضى ، وانصراف الآمـال عنـه ؟..

وتتجمـع الكلمات الموحية فى مفروقة الوجدان المفقود « معانقة ـ الغيـد ـ قلبى ـ كبدى ـ تتيمـه ـ عين ـ جيـد » .

وكأن هذه الكلمات حبات عقد على نحر الأمل المصروع في نفس الشاعر المفجوع ، إذ أين منه المعانقة والغيد وقلبه وكبده والتتيم والعين والجيد ؟..

ولهذا فهي كلها مفردات فقدت تراكيبها ، وألفاظ ضلت معانيها ، ولآلىء انفرط عنها عقد الحياة ، إذ أنها ما عادت كما يهوى الشاعر ، وما التأمت حيث شاء لها الهوى في نفسه ووجدانه .

ولنتأمل الاستفهام في قوله : « أخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما هم وتسهيد ؟ » لنرى فيه إيحاء بالمتاعب النفسية بحكم دلالته البلاغية على الانكار هنا ، إذ أنه لا يشك في أن ساقييه يقدمان له في كؤوسهما خمراً ، لكنه ينكرها لما يراه أنها غير مجدية ، فلا نفع فيها ولا راحة .

ولننظر إلى كلمتي « هم » و « تسهيد » لنرى فيهما إيحاء بالمعاناة المردية ، والألم المضني ، والقلق النفسي .

ثم لننظر الى الاستفهام في قوله : « أصخره أنا ؟ » وما يثيره من دهش وانبهار وتحير وذهول في حالته التي سيطر عليها الشعور باليأس والشقاء والانطواء على الأسى والحزن بحكم دلالته البلاغية على التعجب في هذا الوضع .

ثم لنتأمل ما وراء هذه الحالة من رمز وإيحاء في تصوير نفسية الشاعر لنرى ما تتابع عليه من المصائب والنوائب والكوارث بما تعاقب عليه من هم وكرب وغم وضيق وانقباض ، حتى صار يتخيل أنه يعاني من الألم والعذاب ما لا يحتمله إلا حجر ضخم صلب .

ولنتأمل اختيار كلمة « صخرة » هنا لنرى فيها إيحاء بكل معانى الجمود ، وفقدان الاحساس ، وضياع الحياة .

فضلا عن أنها لون ضمن ألوان الصورة الكلية التى رسمتها ريشة المتنبى لحياة يائسة حزينة ، ضاع فيها الأمل ، وخاب فيها الرجاء ؛ إذ أن الصخرة قطعة من البيداء ، ودون الآمال أهوال البيد ، فما الذى لا يجعل الشاعر قطعة من البيد ؟.. فهو نفسه حجر عثرة دون الانطلاق إلى الغايات والأهداف ، فماذا بعد ضياع العمر من أمل يرتجى فى الشباب ؟ .. لقد فات الأوان ولا مفر .

ثم لننظر إلى ايثاره تقديم كلمة « صخرة على (أنا) » لنرى أنه الى جانب دلالته البلاغية على القصر فان فيه إيحاء بوهنه وخضوعه وتنازله عن غروره وتعاليه ، وبأنه لم يعد للفخر مكان فى نفسه الآن بعد أن ضاع منه الرجاء ، وخاب فيه القصد ، وأضحى طموحه فى قمة شاهقة يصعب الوصول إليها .

على أنه كثيراً ما قدم لفظ « أنا » فى شعره فى مجال الفخر بالاعتداد بالنفس والترفع والكبرياء ، وهو مبثوث فى ديوانه ، والكشف عنه فيه لا يحتاج إلى جهد وعناء ، حيث لا تخفى مواضعه فى أضعافه بعد أن أشرنا إلى مظانه فيه فى الهامش هنا(١٦) .

---

(١٦) راجع ديوانه ص١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ١٢٥ ، ١٧٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣٣٢ ، ٣٦٠ ، ٤٤٦ ، ٥٢٩ .

وحسبنا أن نسجل فى هـذا البحث بعضـاً ممـا قاله فى ذلك المجـال ، ليكون شـاهداً على ما نرى ، حيث يقـول وهـو فى صباه :

أنـا تـرب النـدى ورب القـوافى
وسـمام العـدى وغيـظ الحسـود
أنـا فى أمـة تداركهـا اللـ
ـه غـريب كصـالح فى ثمـود(١٧)

ويقـول وهـو فى صـباه أيضـاً :

أنـا ابن اللقـاء أنـا ابن السـخاء
أنـا ابن الضراب أنـا ابن الطعـان
أنـا ابن الفيـافى أنـا ابن القـوافى
أنـا ابن السروج أنـا ابن الرعان(١٨)

ثم يقـول فى سـياق مدحـه أبـا العشـائر :

أنـا الذى بين الالـه بـه الـ
أقـدار والمـرء حيثمـا جعـله(١٩)

فضـلا عن أنـه صـدر لفظ « أنـا » على كلمـة « صخرة » فى موضـع آخـر ، ليشعر بالفخـر بالصلابة والرسـوخ والثبـات ، وهـو قـوله :

أنـا صخرة الـوادى إذا ما زوحمـت
وإذا نطقـت فـاننى الجـوزاء(٢٠)

---

(١٧) ديوانه ص٢٢ .
(١٨) ديوانه ص٣٣ .
(١٩) ديوانه ص٢٤٩ .
(٢٠) ديوانه ص١٢٥ .

أمـا وقد قضت عليـه الأقـدار بهـدم كيانه النفسى والروحى ، فليس لـه فى مجـال الفخـر بمـا كـان يتمدح بـه من خصـال موضـع هنـا ، إذ أنـه فى هـذه الأبيـات يصور أسـوأ محنـة تمـر بـه ، فكلهـا يأس ، أو حـزن ، أو توجـع ، أو تحسـر .

ولننظـر إلى الاستفهام فى لفـظ « مـالى ؟ » وما يثـيره من دهش واستغراب فى حالته التى لا تحركها المـدام ولا الأغاريد بحـكم دلالته البلاغية على التعجب .

ثم لنتأمل ما وراء هـذه الحـالة من رمـز وإيحـاء فى تصوير نفسية الشـاعر لنـرى ما تداعى عليـه من فقدان الاحساس ، وتبلد الشعور بمـا توالى عليـه من الكـروب والهموم والخطـوب ، بحيث صـار لا يهتـز لمـدام ، ولا يطـرب لأغـاريد .

ولنتأمل قـوله : « وحبيب النفس مفقـود » لنـرى إيحـاء بمـرارة المعـاناة النفسية ، وألـم المكابدة الوجدانية .

ثم لنـرى مافى إيثـاره كلمـة « النفس » دون « القلب » من إيحـاء بأن قلبـه قـد صـار نفسـاً ، فنفسه قلبـه ، أو قلبـه نفسـه ، فهمـا ممتزجان ومشتركان فى الاحساس بالأسى والأسـف على فقـدان الحبيب .

وكذلك لنـرى ما تثـيره كلمـة « مفقـود » من إيحـاء بالرثاء والشفقة والعطف لحـال شـاعر فقـد منـه حبيب نفسه ، ولم يجـد دليـلا يدلـه عليـه ، ولا مرشـداً يوجـه ناظريه شـطر أرضه ، ولا معينـاً يأخـذ بناصية مطيتـه نحـو بلاده .

على أن قـوله : « حبيب النفس » رمـز إلى أملـه الضـائع الذى ظـل يراوده طـول حياته ، حيث لم يكن لـه حبيب يحـرص

عليه سواه ، أو ايماء إلى سيف الدولة ، اذ أنه كثيراً ما لوح به فى شعره .

ولننظر إلى الاستفهام فى قوله : « ماذا لقيت من الدنيا ؟ » نستلهم منه إيحاء بتحسره على ما فاته من طموحه فى الحياة ، وحزنه عليه ، وتوجعه لما أصابه من ضياعه بحكم دلالته على النفى فى الاستعمال البلاغى ، إذ أن مضمون العبارة « لم ألق شيئاً من الدنيا » حسب طبيعة المعنى والموقف والسياق .

وكأن المتنبى بهذه العبارة يضع بين أيدينا مالا نستطيع استخلاصه من قراءة كتب التاريخ ، ومراجعة مؤلفات علوم النفس والاجتماع .

إنه يضع أمامنا حقيقة تقول : اذا لم يسعد المرء بتحقيق أمل يؤانس وحدته ، وتهش له نفسه ، ويطرب به قلبه فلا خير فى عمره وإن أحرز كنوز الدنيا ، ونال من الغنى واليسار الكثير .

ولنتأمل كلمة « شاك » فى قوله : « وأعجبه أنى بما أنا شاك منه محسود » لنرى ما فيها من إيحاء بمرارة الافصاح عن عناء النفس ، وبمعاناة الاعلام عن يأسها ، وبألم الاعلان عن عذابها .

وأى نفس !!

إنها نفس الفارس المغوار الذى صال وجال فى بلاط الملك ، وناضل وجاهد فى ميادين القتال ، ونافح ودافع عن شعره وفكره ، ومدح أعيان الملوك والرؤساء .

وهاهو ذا اليوم يشكو مصوراً مشاعره ، وما صار إليه

حساله من انقباض الروح ، ومكابدة الأسى ، وضياع الأمل ، وقسوة الحرمان فى جو كالفور .

وهكذا يفيض شعر المتنبى بالمشاعر الصادقة ، والأفكار النابضة ، مانحاً الكلمة حقها ، ليبرز منها رمزها وإيحاؤها .

ولهذا كتب لشعره الخلود ، واحتل مكانة رفيعة لدى الشادين بالأدب ، لاتصاله بالعواطف التى لا تتبدل أسسها فى النفس الانسانية .

* * *

— ٨ —

ونخترق آفاق الزمن ، وننتقل إلى رائد من رواد الشعر الحديث ، وهو أمير الشعراء أحمد شوقى ، ونقف عند أبيات له ، أرسلها وهو فى منفاه بالأندلس إلى صديقه شاعر النيل حافظ ابراهيم ، لنرى أثر إيحاء الكلمة على التعبير فيها عن عاطفة الشاعر وأحاسيسه ، حيث يقول :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على
عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئاً نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا(٣١)

---

(٣١) ديوان حافظ ص١٨٦ « الطبعة الثالثة طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧ م ضبط وتصحيح وشرح وترتيب الأستاذ أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابيارى » . ومعالم أدبية للدكتور أحمد جاد ص٥٦ « طبع مؤسسة الرسالة عام ١٣٤١ هـ » .

ونلمس فى هـذه الأبيات أن أحمـد شوقى فى منفـاه يخـاطب حـافظ إبراهيـم فى صورة شعب مصـر كلـه ، ومن سكنها أيضـاً ، قائلا لـه ولهـم : إنى برغـم البعـد عن مصـر لم أزل على عهـد الوفاء مقيمـاً ، ويطلب منـه ومنهم أن يبعثوا لـه شيئا من مـاء النيـل ، فـان ظمـأه قـاتل .

وليس ذلك عن ندرة المـاء بأرض منفـاه ، وإنمـا لتفوق النيـل على ما عـداه ، فكـل منهـل غـير النيـل آسـن ولم تزل بالقلب أمنيـة تتعلق بالنيـل .

والأبيات تنطق بالغنائية ، وتغـوص فى أعماق الذاتية ، فالشاعر على ظمـأ ، والمناهل حـوله كثيرة المنـابع والروافد ، لكنها آسـنة .

والايحـاء فى الأبيات سـر شفافيتها ، ومحرك ركـب الشعور فيهـا ، فهى تتزاحم بالصـور الوجدانية ، وتصرخ فى أعماق الانسانية قـائلة لـكل ذى لب وقـلب رحمـاك .. رحمـاك ، أدرك هـذا الفـارس الذى ظمىء ، وقـد لعبت بـه الأقـدار ، فأصبح مـاؤه غـوراً مع وفـرة مناهله ، واشتهى المـاء مع كثـرة ينابيعه .

ولنقف عند قـوله :

يا ساكنى مصـر إنـا لا نزال علـى
عهـد الوفـاء وإن غبنـا مقيمينـا

لنـرى أنـه آثـر التعبير بالسكن ، ليشـعر بأن من يسكنون مصـر فانهم فى نعمـة ، ومن عداهـم ـ وإن سكنوا القصـور فى غيرهـا ـ فهـم فى مهـب الريـح ، وعلى قارعـة الطـريق .

وقـد يمـر القـارىء العادى على كلمـة « مصـر » دون أن يشـعر بشىء ، لكن الفطن الحاذق يقف عندها متأملا إيحاءها الخفى ،

فهى الوطن ، وما كان النيل عذباً ، ولا ماؤه صافيا إلا لأنه نيل مصر ، فكأن الشاعر يرمز بالنيل إليها ، ولا يرى فرقاً بينه وبينها .

ولننظر إلى لفظ « على » الذى يدل على الاستعلاء فى أصل المعنى ، لنرى أنه يتضامن هنا مع قوله « لا نزال » فى إفادة الاستمرار ، كما يقال : « فلان على سفر » و « فلان على عجلة من أمره » .

وما أروع الشاعر فى اعتراضه حين قال : « وإن غبنا » فان فى هذا الاعتراض إيحاء عجيبا ، يبرز حبه لمصر ، وشغفه بها ، ورمزاً خفياً ينبىء عن أنه يمر على غيابه — وهو أصل القضية — مرور الكرام ، ولا يكشف عنه اللثام ، ولا يفعل فعلة اللثام عندما يتعرضون لأى نوع من الآلام فانهم يصرخون ويضجرون وينشدون الأنام إعلاماً بأن تعبيره عن مشاعره بأنها فى خاطره ووجدانه أهم عنده من الحديث عن الغربة وما بها من محن وخطوب ، إذ يحس بأنه مقيم ، وان كانت اقامة على عهد الوفاء ، لا على أرض الوطن الحبيب .

ولنقف عند قوله :

هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئاً نبل به أحشاء صادينا

لنرى أنه فى حثه على طلب حسوة من ماء النيل قد حرص على اختيار كلمات تنبع منها إيحاءات تترجم عن دوافع دفينة مع الوجدان الهائم والحنين الباكى .

ففى كلمة « شيئاً » إيحاء يحمل مشاعر تصور تلهفه على ماء النيل ، وشوقه الى جرعة منه ، حتى وإن كانت قطرة

واحـدة فانهـا تكفي لكي تبـل الصـدى ، وتروى العطش بحـكم دلالة التنكـير البلاغية على القـلة هنـا .

وفى كلمـة « نبـل » إيحـاء يشـع عن نزوعه الى مـاء النيل ، وينبض بحنينـه الى العـودة إلى مصـر ، اذ صـار ظمؤه بالحرمان منهـا شـديداً ، وأضحى ما يعانيه من ألـم المحنة عاصفاً مدمـراً .

وفى كلمـة « أحشـاء » إيحـاء مثـير يصور ضيقه بالمنفى ، وتعطشه إلى الوطن ، وينقـل الينـا احساسه بأن كـل مافى جـوفه قـد صـار متأثراً بحرارة الظمـأ إلى الحـرية ، ففى المعـدة لهيب ، وفى الأمعـاء نيران ، وفى القلب جـوى ، وفى الكبد حـرقة ، وفى الطحـال اشتعال .

ولنقف عند قـوله :

كـل المنـاهل بعـد النيـل آسـنة
ما أبعـد النيـل إلا عـن أمانينـا

لنتأمل كلمـة « بعـد » إثـر لفظ « المنـاهل » لنرى فيهـا إيحـاء يصـور حـالة الشـاعر النفسية ، وما يعيش فيـه عبـر غربته المضنية عن الوطن ، وما يحكيه أنينـه الموجـع على سـالف عهـده .

كمـا أنهـا ترمـز إلى أن الشـاعر قـد عـب من النيـل قبل غربته حتى ارتـوى ، واستعذب رحيقـه ، وتنسـم عبـيره ، وتملى جمـاله .

ولذا فهى صـالحة لأداء هـذه المعـانى المتقابلة التى تصـور شـاعره البائسة فى منفـاه والسعيدة بين ربـوع وطنـه .

ومن ثـم فاننـا لو وضعنا مكانها كلمـة « غـير » — وهى

تشبهها وزنـاً ، وتوائمها معنى ــ لتحولت الصـورة ، ولم تعـد تدل على تلك المشـاعر التى أشرنا إليهـا فى قليـل أو كثـير .

ولننظـر الى كلمـة « آسـنة » لنرى فيهـا إيحـاء يبـرز تعلقـه بنيـل مصـر ، ويرمـز إلى ما يعانيه كيـانه النفسى من مـرارة جعلته يحس بأن منـاهل منفـاه متغـيرة الطعم واللون .

ولننظر إلى التعجب فى قـوله : « ما أبعـد النيـل » وما يثيره من دهش واستغراب فى حالته التى يشـعر فيهـا بزفـير حرقته وبعد شقته عن النيـل ومفارقته وطنـه .

ولنتأمل ما وراء هـذه الحـالة من إيحـاء ورمـز فى تصـوير نفسية الشـاعر لنلمس ما يحس بـه من بعـد يثـير النظـر ، ويلفت الانتبـاه ، ويدعـو إلى الاشفاق والعطف ، اذ أنـه بعـد اضطرارى لم تكن لـه فيـه إرادة ، وليس لـه فيـه اختيـار ، ولا قوة لـه على دفعـه .

ولننظـر الى قـوله : « إلا عن أمانينـا » لنرى فيـه ايحـاء وإثراً يكشف عن أسى الشـاعر بالبعـد عن النيـل ، ويشـعر بأن إحساسه بالقـرب منـه ضعيف وبعيد المنـال ، وأن تعلقه بالأمانى يقـع من نفسـه موقـع الحياة فيهـا ، إذ أنـه لا يملك سـواه .

وقـد كـان ذلك كلـه محـركاً عاطفة حـافظ إبراهيم حين أجـابه قـائلا :

عجبـت للنيـل يـدرى أن بلبـلـه
صـاد ويـروى ربـا مصـر ويسقينا

واللـه ما طـاب للأصحاب مـورده
ولا ارتضـوا بعدكم من عيشهم لينـا

لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه
وقد نأينا وإن كنا مقيمينا(٢٢)

حيث صنع الايحاء من أحمد شوقى بوجدان حافظ إبراهيم ما صنع ، فبادله إيحاء بايحاء ، وشعوراً بشعور .

وهنا نستطيع أن نستنتج أن من ثمرات الايحاء النابع من شعر شاعر مرهف الحس أنه يتأثر به شاعر آخر ، فيحتذيه فى نتاجه الفنى ، ويترسم خطأه فيه .

وأصدق شاهد على ذلك أن أبيات أحمد شوقى التى تناولنا دراستها آنفاً حين قرأها حافظ إبراهيم كانت له بمثابة بركان تفجر عن معنى وليد ، قد استدعاه إيحاء جديد ، هز نفسه ، وهيج وجدانه .

ولهذا تعد تلك الأبيات التى أجاب بها حافظ إبراهيم حدنه أحمد شوقى نموذجاً حيا مما جادت به قريحته من شعر ، حيث بلغت منزلة عالية بما احتوت عليه من طرافة المعنى ، ودقة التصوير ، وشدة الأسر ، وقوة التأثير ، وروعة التعبير ، وبراعة السبك ، وجمال النظم ، وحسن الايقاع .

وما ذلك الا من أثر الايحاء بها الذى استمده حافظ إبراهيم من إيحاء تلك الأبيات التى بعثها أحمد شوقى اليه من منفاه .

* * *

(٢٢) ديوان حافظ إبراهيم ص١٨٧ ومعالم ادبية للدكتور احمد جاد ص٥٧ .

ثم نقف وقفة أخرى عند أبيات لزميلنا الأديب البارع الدكتور مبروك عطية أحمد أبو زيد مدرس اللغويات بكلية الدراسات الاسلامية والعربية بسوهاج من قصيدة طويلة مدح بها رسول الله ﷺ فى مهرجان شعرى أقيم بالكلية لنرى ما يشع فيها من إيحاء رائع وتصوير بديع ، حيث يقول :

ومنحت أرباب العواطف فسحة
يا رائد الوجدان أنت معلم
فلقد وقفت بباب مكة لحظة
يوم الرحيل وبدر مكة مظلم
لتبث شوقاً من حنانك قائلا
يا خير أرض الله أنت المعلم
لكن قومك ظالمون جفوننى
لولاهم مازال عنك البلسم
ومضيت تصبر فى الجهاد وترتجى
أم القرى فأتاك فتح أعظم
فدخلت مكة والفحول صغائر
ترجو الكريم ابن الكريم وتعشم
فعفوت عنهم والفؤاد حديقة
فطليق عفوك للحقيقة يسلم

وهذه أبيات مزج الشاعر فيها بين التاريخ والوجدان ، حيث أشار إلى موقف من مواقف السيرة النبوية الشريفة ، وهو موقف الهجرة من مكة إلى المدينة ، مصوراً مشاعر الرسول

ﷺ عند الرحيل ومخاطبته مكة المكرمة ، وأعلانه حبه لها ، وإفصاحه عن أنه ما تركها قاليا لها ، وانما ترك عناد قومها الذين تصدوا لدعوته بغيا وعدواناً .

ثم تناول موقفه ﷺ عندما عاد إلى الفتح المبين ، حين جاء الحق وزهق الباطل بعد جهاد طويل ، مبرزاً ما تحلى به من خلق كريم عندما عفا عمن أساءوا إليه ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا .

وقد أدى إيحاء الكلمة دوره فى اظهار عاطفة الشاعر ومشاعره نحو عظمة الرسول ﷺ فى كثير من الصور والظلال والألوان .

ولنقف عند لفظ « منحت » لنرى فيه إيحاء يبرز مبادىء إنسانية قد أقامها الرسول ﷺ ، وغرسها فى نفوس المؤمنين . تتمثل فيما ارتضته الأذواق فى مختلف العصور فيما يتجلى فى طابع أخلاقه من إيثار البذل والتضحية ، ورحابة الحنان والعطف ، وفيض الكرم والسخاء .

ولنتأمل حرص الشاعر على اختيار كلمة « العواطف » لنرى فيها إيحاء ينبع منه نغم الرد على ما توهمه بعض المعاصرين من أن العواطف وليدة الرومانسية فى العصر الحديث ، حيث يرد بها إلى أنها تراث عريق ، وفكرة قد أشرقت فى قلوب المؤمنين منذ عهد بعيد .

ولو وضعنا مكانها كلمة « البصائر » — وهى تماثلها وزناً ، ويستقيم بها المعنى — لتبدل وجه الصورة ، ولا تصلح لأداء الغرض الذى قصده الشاعر منها .

ولننظر الى كلمة « فسحة » لنرى فيها إيحاء بالراحة بعد

العنـــاء ، وامتداد العواطف الشريفة وتدفقها ، ورحـــابة أبعادهـــا ومعالمها ، وربط التراث المـــاضى المجيد بأمجـــاد الحاضر المشـــرق . وصولا إلى مستقبل أكثـــر أمـــلا وانطلاقاً وتحـــرراً .

ولنتأمل كلمـــة « الوجدان » فى قوله : « يا رائـــد الوجدان أنت معـــلم » لنرى فيهـــا إيحـــاء يلفت الانتبـــاه الى ما حرص عليـــه الشاعر من اختيـــار لفظ « العواطف » قبلهـــا إشعاراً بأن الجـــوانب الوجدانية السامية مستمدة من رســـول الله ، وفيض من تعاليمه .

ولو وضعنا بدلا منهـــا كلمـــة « الاحسان » ـــ وهى تضارعها وزنـــاً ، ويصلح بهـــا المعنى ـــ لتغيرت الصـــورة ، ولم تعـــد تؤدى الهـــدف الذى ساقها الشـــاعر من أجلـــه .

ولننظر إلى كلمـــة « مظـــلم » فى قوله : « وبـــدر مكة مظلم » لنرى فيهـــا إيحـــاء يصـــور ماكان يحيط بمـــكة يوم الهجـــرة من نهـــار حالك ، وليـــل دامس ، وجهل فـــادح ، وغـــم قاتل ، وتوجس عاصف حجب عنهـــا الحيوية والأمـــل .

ولنتأمل لفظ « لتبث » فى قـــوله : « لتبث شـــوقاً من حنانك قـــائلا » لنرى فيـــه إيحـــاء يصور ما يحمله قلب رســـول الله من الذكريات والعواطف والأحاسيس والمشاعر نحـــو وطنه الحبيب الذى على أرضـــه نشـــأ ، وعلى أديمـــه درج .

ولننظر إلى كلمـــة « المعـــلم » فى قـــوله : « يا خـــير أرض الله أنت المعـــلم » لنرى فيهـــا إيحـــاء يصـــور مكانة مكـــة الجليـــلة فى القلوب ، ويبـــرز أثرهـــا الطيب فى النفوس ، وينـــوه بقداستها ومدى عظمتهـــا وعـــلو شأنها ، وأنهـــا مشعر حـــرام ســـوف تتطلع إليهـــا الأفئدة إلى ماشـــاء الله تعـــالى .

ثم لننظر إلى كلمة « البلسم » فى قوله : لولاهم مازال عنك البلسم » لنرى فيه إيحاء قوى الدلالة على أن ما جاء به رسول الله من الهدى والرشاد والعلم والمعرفة فيه طب لعلاج المتاعب النفسية والآلام الجسمية معاً .

ولنتأمل لفظ « مضيت » فى قوله : « ومضيت تصبر فى الجهاد وترتجى » لنرى فيه إيحاء يصور قوة روح الرسول فى ساعات المحنة ، وارتفاع عزيمته فى أحرج الظروف وأحلكها عن اليأس والكسل والخور والضعف .

وتتضافر الألفاظ المألوفة المتداولة حاملة شحنة عاطفية قوية الدلالة والايحاء فى سياق الصياغة الفنية فى رسم صورة النصر « مضيت ـ تصبر ـ الجهاد ـ ترتجى » .

كلمات هى أسلحة المعركة ، ووسائل النصر ، وعوامل الغلبة التى تقهر الضعف ، مضى فى صبر وجهاد ، ورجاء لا يموت ، فكان الفتح الأعظم .

ولننظر إلى لفظ « دخلت » فى قوله : « فدخلت مكة والفحول صغائر » لنرى فيه إيحاء يصور قوة الرسول ، وبسط سيطرته ، ويرمز إلى العودة والفتح ، وتحقق النصر .

ولنتأمل كلمة « الصغائر » لنرى فيها إيحاء يصور ما آلت اليه حال صناديد قريش من الذل والهوان بعد أن كانوا فحولا ، أو يبدون فحولا فى نظر الآخرين ، فهم الآن صغائر لا يؤبه بهم .

ولننظر إلى الفعلين : « ترجو وتعشم » لنرى فيهما رمزاً يصور ما تبقى لأهل مكة يوم الفتح من سلاح ، حيث لا يملكون